ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور
صالح أحمد العلي

(١)

الألوان ظاهرة معقدة يمكن دراستها من عدة جوانب ، منها طبيعتها وخصائصها الفيزيائية ومنها تركيب المواد التي تصنع منها سواء المعدنية أو النباتية أو الكيميا وية كما أنه يمكن دراستها بالعلاقة مع المواد التي تُكَوّن بها كالخطوط والأثاث الخشبية والحديدية ، أو الحيطان والسقوف المبنية بالآجر والجص والفسيفساء ؛ أو لعلاقتها بأذواق الناس ونفسياتهم . وسنقتصر في هذا المقال على دراسة الألوان التي ذكرت المصادر شيوعها في الألبسة العربية في العهود الاسلامية الأولى ، مؤملين أن تقدم المادة المعروضة فيها ما يوضح جانباً من الحضارة لم يحظ باهتمام كبير ، وأن تساعد المستزيدين في دارسة هذه الميادين .

ومن المعلوم أن الدولة الاسلامية توسعت بعد تأسيسها بسرعة هائلة ، فبعد أن بدأت نواتها في أول القرن الأول الهجري ، صارت تشمل في أواخر حياة الرسول

(ص) كل الجزيرة العربية تقريباً ، وفي خلال أقل من ربع قرن من وفاته شملت كل البلاد الواقعة بين نهر جيحون في المشرق وتونس في المغرب ، ثم توسعت في عهد الخلافة الأموية في أواسط آسيا والسند وأرمينية والمغرب والأندلس . وكان يقطن هذه الرقعة الشاسعة شعوب ومجتمعات متعددة ، لها تقاليد ونظم إجتماعية واتجاهات فنية وأذواق متنوعة ، كما كانت فيها قبل الاسلام دول ذات نظم وتقاليد يتصل بعضها بألوان الألبسة السائدة عندهم . ومن الطبيعي أن تلك المجتمعات حدثت فيها تبدلات سياسية ومادية وحضارية بعد الفتح الاسلامي بسبب انقراض ملوكها وانهيار سيادة الطبقة الحاكمة فيها ونشاط الحياة الاقتصادية ، وتزايد مكانة الطبقة المتوسطة من أهل المدن وتكاثر عدد المهاجرين الأعاجم الى الأمصار التي أنشأها العرب ، وما كان لهم من آثار تدريجية في الألبسة والأذواق والألوان زاد أثرها بعد مجيء الدولة العباسية ، التي وان كانت ظلت تساند العرب ، إلا أنها أتاحت حرية اوسع للاعاجم ، وخاصة في المدن . للتعبير عن أذواقهم ومثلهم الحضارية ، بل اقتبست بعض مظاهر حضارتهم في الألبسة والألوان ، والواقع أن بعض العرب الذين نزلوا المدن الاعجمية أخذوا يقلدون الاعاجم في ألبستهم وأذواقهم ، ويقول البلاذرى إن عباد بن زياد غزا قندهار «ورأى قلانس أهلها طوالاً فعمل عليهافسميت العبادية»(١) ويقول الجاحظ «وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لاتفصل بين من نزل أبوه فرغانة وبين اهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً في السبال الصهب والجلود القشرة والأقفاء العظيمة والأكسية الفرغانية ، وكذلك جميع تلك الارباع لاتفصل بين ابناء النازلة وبين ابناء الثابتة» (٢) والراجح ان ماقاله الجاحظ عن ماوراء النهر ينطبق على أنحاء أخرى من الدولة الاسلامية ، كما أن ازدياد هذا الاقتباس هو أحد المبررات التي وصف

١- فتوح البلدان ٤٣٤

٢- مناقب الاتراك . ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ١/٦٣-٤

فيها الجاحظ الدولة العباسية بأنها « دولة أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أموية عربية » (١) .

والواقع أن التطورات التي حدثت في العصر العباسي لم تقتصر على تزايد أثر الأعاجم في مظاهر الحياة المادية ، ومنها الألبسة ألوانها ، بل امتدت الى ميادين اخرى ،منها اكثار الدولة من دور الطراز التي تنسج الألبسة للخليفة والمقربين اليه تبعاً لما تقرره الدولة ، ومنها فرض ازياء رسمية ذات ألوان تقررها الدولة ، ومنها تزايد الخاصة من الملتفين حول بلاط الخليفة ،وكذلك عدد الموظفين وتمايزهم بالألبسة والألوان ، واهتمام المصادر بأخبارهم . ولاريب في أن كثيراً من هذه التطورات قد بدأت قبل مجيئ العباسيين ، ولكنها توسعت بعد ذلك العهد كما أن مظاهر الحضارة المادية ، بما في ذلك الالبسة وألوانها ، لم تزُل كلياً بعد مجيئ العباسيين . ولما كان بحثي محدداً بالألبسة العربية في العهود الاسلامية الأولى ، فإني لم أتوسع في بحث ألوان الالبسة في العصر العباسي واكتفيت ببعض الاشارات إليها ، لإظهار الاستمرارية أو للمقارنة فحسب .

لقد ظهر الرسول (ص) بين العرب ، وبدأ ينشر دعوته فيهم ، فكان منهم الصحابة الأولون الذين استجابوا لدعوة الاسلام وتشبعوا بروحه ، وكوّنوا الدولة الاسلامية ووسعوا رقعتها ، وصاروا المثل الأعلى في حياتهم للمسلمين . وكان العرب هم المسيطرين في الدولة ، وقد استوطن المهاجرون منهم الى الاقاليم المفتوحة في عدد من الأمصار التي أنشأوها ، وكوّنوا فيها الغالبية العظمى من السكان ، وبذلك سادت في هذه الأمصار الأزياء الشائعة بين العرب .

ولا يخفى أن أهل الجزيرة كانوا عند ظهور الاسلام متباينين في أذواقهم وألبستهم ومستوياتهم الحضارية ، وقد أشارت المصادر الى بعض التباين بين لباس

١ – البيان والتبيين ٣/٢٠٦

أهل الريف والقرى والمدن ، ولباس الأعراب من البدو ، فقد كان من لباس الأعراب البردة (١) ، والبجاد (٢) ويذكر ابن الحائك الهمداني عن صنعاء « أما أهل بواديهم فأهل شعور من الحمام ، ومنهم منحلة وأصحاب لبس الحمرة ومن بعد منها فأصحاب خضاب من ورس وزعفران » (٣) والراجح ان كلام الهمداني ، وهو من أهل القرن الرابع الهجري ، ينطبق على العهود الاسلامية الأولى فيها ، وأن تمايز أذواق أهل المدن عن أهل البدو لم يقتصر على صنعاء وحدها ، بل كان قائماً في أماكن اخرى .

وذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز « كتب أن لاتلبس أمة خماراً ولا يتشبهن بالحرائر » (٤) وكانت الدولة منذ عهد الرسول (ص) تجبى بعض الضرائب في الألبسة ففي المعاهدة التي عقدها الرسول (ص) مع أهل نجران ، فرض عليهم « الفي حلة من حلل الأواقي ، في كل رجب الف حلة ، وفي كل صفر الف حلة ، كل حلة اوقية من الفضة » (٥) وقد استمر الخلفاء من بعده يجبون من النجرانيين الضريبة بالملابس ، حتى القرن الثالث الهجري ، وان كان مقدار الحلل المجباة تناقص على مر الايام . وقرر الرسول على الذميين من اهل اليمن « على كل حالم وحالمة ذكرا وانثى ، حر أو عبد ديناران او قيمة المعافر أو عرضه ثياباً » (٦) .

١- لسان العرب ٥٣/٤ الاغاني ١٣/٢ (وسنشير الى لسان العرب بكلمة لسان)

٢- لسان ٤٣/٤

٣- الاكليل ٨/١٠

٤- ابن سعد ٢٨١/٥

٥- أنظر هذه المعاهدات والمصادر التي اوردتها في كتاب « الوثائق السياسية لمحمد حميد الله . وثيقة ٩٤ ، ١٠٣ .

٦- المصدر السابق : وثيقة ١٠٩ ، ١١٠ وانظر عن ثياب المعافر ابن حنبل ٢٣٠/٥ ، ٢٤٧ ابو داود زكاة ٥ ، النسائي : زكاة ٨ .

وقد فرض خالد بن الوليد على أهل الانبار أن يقدموا الف عباءة قطوانية » (١) ولا ريب في أن هذه الثياب المجباة كانت توزع على المسلمين مع العطاء ، وقد ذكرت المصادر توزيع الكسى على الناس في الحجاز والشام ، فأما في الحجاز فإن محمد بن سلام الجمحي يروى « جاءت عمر حلل من اليمن فأعطى أصحاب رسول الله (ص) وأبو أيوب الانصاري غائب فرفع لنفسه حلة واخذ لنفسه حلة» (٢)

ويروى البلاذري بسند عن الحسن أنه قال « أدركت عثمان وعلي مانقموا منه وما يأتي على الناس يوم إلا وهم ينالون فيه خيراً ، ويقال أغد وا على أعطياتكم فيأخذونها ويقال أغدوا على كسوتكم فيأخذونها » (٣) ويقول ابن سعد « وأمر عمر فكتب له عيال اهل العوالي فكان يجري عليهم القوت ، ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة » (٤) .

ولم يرد ذكر لتوزيع الدولة الألبسة على أهل الحجاز في العصر الاموي ، أما في العصر العباسي ، فيروي مصعب الزبيري أن عبد الله بن مصعب بن ثابت في عهد خلافة المهدي « جلس للناس يعطيهم الأموال ، يعطي الرجل من قريش ثلاثمائة دينار ويكسوه سبعة أثواب » كما يذكر أن الرشيد كان معجباً بأبي بكر ابن عبدالله بن مصعب «وأخرج لأهل المدينة على يديه نصف عطاء وكسوة وقسماً في سنة ١٨١ هـ، وأخرج على يديه ثلاثة اعطية وكسوة فاخرة في سنة ١٨٦ هـ...وأخرج على

١- فتوح البلدان ٢٤٥

٢- تهذيب ابن عساكر ٥/٤٠ .

٣- انساب الاشراف ٥/١٠٠ .

٤- ابن سعد ٣-١/٢١٤

يديه في سنة ١٨٨هـ نصف عطاء وكسوة وقسماً »(١) أما في الشام فيذكر عوانة أن الضحاك بن قيس رئيس القيسية في يوم مرج راهط قتل « وقتل معه من الأشراف ثمانون كلهم كان يأخذ القطيفة ، كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم »(٢) والراجح أن القطيفة لم يقتصر أخذ ها على أشراف القيسية ، بل كان عاماً على الأشراف من جميع القبائل . ويدل نص البلاذرى على أن توزيع القطيفة كان معمولاً به في أواخر خلافة السفيانيين ، ومن المحتمل أن بداية تطبيقه ترجع الى عهد الخلافة الراشدة ، وأن العمل بها استمر في خلافة المروانيين أيضاً ، ومن الطبيعي أن هذه القطيفة كانت توزع بصورة منتظمة وثابتة ، وهي غير الهدايا من الألبسة التي يتردد في المصادر أنه قدمها الخلفاء الأمويون ، وخاصة المتأخرين منهم ، وكذلك الخلفاء العباسيون .

لابد أن الخلفاء لم يكونوا يشترون المنسوجات التي يعطونها أو يهدونها ، ولعل كثيراً منها كان مما يؤخذ من الضرائب العينية على المنسوجات في بلاد الشام . غير أنه لايمكن الجزم بأنها مما كان يصنع في دور الطراز ، فان الطراز وإن كان مذكوراً في بيت لحسان بن ثابت في صدر الاسلام ، وأن الثياب ذات العلم الذي كان يدل في العصر العباسي على صنعه في الطراز ، مذكور منذ زمن الرسول (ص) (٣) إلا أن المصادر تنص على ان هشام بن عبد الملك « هو اول من اتخذ الطراز » (٤)

إن توزيع الدولة الملابس والمنسوجات لايعني أنها عملت على ترويج استعمال ألوان معينة فلا يوجد في المصادر دليل عل انها كانت تفرض ألواناً معينة على

١- نسب قريش ٢٤٢ .

٢- انساب الاشراف ١٣٦/٥ الطبري ٤٧٧/٢ .

٣- عن هذه الاحاديث انظر فنسنك : المعجم المفهرس مادة (علم) .

٤- الذخائر والتحف ٢١١ وانظر عن الطراز ونشأته دائرة المعارف الاسلامية مادة (طراز) وكذلك ما كتبه سارجنت في مقاله عن المنسوجات الاسلامية المنشور في مجلة Ars Islamica

المنسوجات التي توزعها أو أنها فرضت زياً رسمياً ذا ألوان مميزة حتى على مستخدميها من الجند والشرطة ورجال البلاط ، إلا ما ذكره القاضي الرشيد «كان هشام وبنو مروان يكسون الناس الخز إلا الأصفر والأحمر ، ويكسونهم ما سوى ذلك من الألوان ، ويدخرون الأحمر والأصفر لأنفسهم » (١) فان فرض الدولة لوناً رسمياً يستعمله المتصلون بها لم يبدأ إلا في العصر العباسي حيث اتخذ السواد شعاراً رسمياً ، كما تميز بعض الجماعات ، كالكتاب والفقهاء والتجار والجند والدهاقين بألبسة خاصة ذات ألوان خاصة .

وفي القرآن الكريم آيات تذكر الزينة وتدعو إليها ،فقال تعالى«يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الاعراف ٣١ــ٣٢) وقد ذكرت زينة الحياة الدنيا في عدة آيات (الكهف ٧و ٢٨ و ٤٦ الحديد ٢٠ هود ١٥ القصص ٦٠ الاحزاب ٢٨ كما وردت كلمة الزينة ومشتقاتها في حوالي أربعين آية ، والقيد الوحيد الذي فرضه القرآن الكريم هو في منعه التبرج واظهار الزينة للناس .

ومن الطبيعي أن الزينة تشمل عدة مظاهر من أبرزها أصباغ الألبسة وألوانها وقد ذكر القرآن الكريم اختلاف الألوان في (٧) ايات (الروم ٢٢ والنحل ١٣ و٦٩ فاطر ٢٧و ٢٨ الزمر ٢١ » ، وهي تشير الى اختلاف ألوان البشر والمواشي والزروع والجبال .

وقد ذكر القرآن الكريم خمسة ألوان هي الأحمر والأصفر والأخضر والأسود والأبيض .

فأما الاحمر فلم يذكر الا في آية واحدة في وصف الجبال (فاطر ٢٧) وأما الأصفر فقد ذكر في أربع آيات ، إحداها عن لون بقرة بني اسرائيل (البقرة٦٩)

١- الذخائر والتحف ص ٢١١

والثلاث الأخرى في وصف لون النبات (المرسلات ٣٣ الحديد ٢٠ الروم ٥١) .

أما الأسود فقد ورد في ست آيات ، احداها في وصف لون الجبال (فاطر ٢٧) وأخرى في لون الخيط الذي يميز به الفجر (البقرة ١٨) واثنتان عن وصف وجه من كان يبشر بالأنثى (النحل ٥٨ الزخرف ١٧) واثنتان في وصف وجه الكاذبين على الله (الزمر ٦٠) والكافرين بعد الايمان (آل عمران ١٠٦) .

أما اللون الأخضر فقد ذكر في سبع آيات ، أربع منها في وصف لون النبات والشجر (يسن ٨٠ يوسف ٤٣ ، ٤٦ الحج ٦٣) وثلاث في وصف ثياب الجنة من السندس الأخضر (الانسان ٢١ الكهف ٣١ ومتكئهم من الرفرف (الرحمن ٧٦)

أما اللون الأبيض فقد ذكر في إحدى عشرة آية ، خمس منهن عن لون يد موسى عند ما ناظر السحرة (الأعراف ١٠٨ طه ٢٢ الشعراء ٣٣ القصص ١٢ و ٣٢ وواحدة كناية عن العمى (يوسف ٨٤ وواحدة عن لون الجبال (فاطر ٢٧) وواحدة عن نون الخيط الذي يميز به الفجر (البقرة ١٨٧) . وآية واحدة في وصف وجه من انعم الله عليه بالجنة (آل عمران ١٠٦) وأخرى في وصف الكأس الذي يدار على أهل الجنة (الصافات ٤٦) وأخرى في وصف جواري الجنة (الصافات ٤٩) ومن هذا يتبين أن لون الملبوسات الوحيد الذي أشار اليه القرآن هو الأخضر وأنه ليس في القرآن حض على استعمال لون معين أو تفضيله على غيره .

وتظهر الأحاديث النبوية وتراجم الصحابة والتابعين ، وسنذكر كثيراً منها عند الكلام عن كل لون ، أن الرسول (ص) والمسلمين الأولين استعملوا ألبسة ذات ألوان متعددة ، ولم يقتصروا على لون واحد أو ألوان محددة ، كما لم يرد في الأخبار ذكر تحريم استعمال لون معين ، كما أنهم لم يقيدوا استعمال الالوان إلا في الإحرام وعند الحداد ، أما فيما عدا هاتين الحالتين فقد أطلقت الحرية في اختيار ألوان

الملابس التي صار يتحكم فيها الذوق السائد الذي تتحكم فيه التقاليد الموروثة والمؤثرات الحضارية بالدرجة الاولى . وكان الذوق السائد هو الذي يفرض على الصباغين ألوان الأصباغ ، وليس العكس .

ولا ريب في أن المجتمع الاسلامي تعرض الى تطور بطيئ بفضل الإختلاط الكبير مع الأعاجم ، وازدياد القوة الشرائية ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وقد أثر هذا في اقتباس العرب بعض الملابس والألوان التي كانت شائعة بين الأعاجم . وكان هذا الاقتباس أسرع وأشمل في المدن والأقاليم البعيدة عن قلب الجزيرة العربية حيث كان عدد العرب بالنسبة للاعاجم قليلاً نسبياً ،كما أشرنا الى ذلك من قبل .

أما في الجزيرة العربية وفي الأمصار فقد كان الاقتباس بطيئاً ومحدداً وظلت الألبسة والألوان القديمة هي المفضلة عند العرب الذين كوّنوا غالبية السكان المطلقة فيها ، وكان أثرهم واضحاًعلى العدد الكبير من الأعاجم وخاصة الموالي الذين الذين استوطنوا الأمصار العربيةخاصة والذين صاروا يلبسون ألبسة العرب الملونة بالألوان التي يفضلها العرب . والواقع أن عدداً غير قليل من الأفراد الذين سنذكر ألوان ملابسهم هم من الموالي ، أي أنهم ليسوا عرباً بدمهم ، ولكن كانت لغتهم عربية ، ودينهم الاسلام ، ومثلهم العليا في الحياة مستمدة من الرسول (ص) والصحابة . ولم تشر المصادر التي ذكرت الملابس وسمّت لابسيها ، الى تمييز ألبسة الموالي وأذواقهم عن غيرهم من العرب ،علماً بأن بعض المصادر كانت تشير إلى لباس الاعاجم .

لقد ذكرت من قبل أن الدولة لم تفرض قبل مجيئ الخلافة العباسية استعمال لون خاص يميز رجالها أو موظفيها وعمالها ، كما لاتوجد إشارة أو دليل على

تمايز الطبقات أو أهل الحرف ، بما في ذلك الكتاب والفقهاء والتجار والدهاقين بألبسة ذات ألوان معينة ، كما هو الحال في العصر العباسي .

وقد قدمت المصادر عن ملابس الرجال وألوانها معلومات أوفر مما قدمته عن ملابس النساء وألوانها ، غير أن هذه المعلومات تكفي للاستنتاج بعدم وجود تباين كبير بين اذواق النساء والرجال في اختيار الألوان وتفضيلها ، رغم أن كتب الفقه والاوساط الأشد تمسكاً بالشريعة تؤكد على قيود أشد على الرجال ، فتذكر كراهية استعمال الرجال لبعض الألوان والألبسة التي لايرون كراهيتها للنساء .

ولاريب في أن أهل الأمصار العربية ، وهم الذين وصلتنا عنهم أكثر الأخبار لم يكونوا في حالة واحدة من الذوق أو مستوى المعيشة أو الثروة ، فقد كان فيهم الفقراء والزهاد ومحبو البساطة في المظاهر ، كما كان فيهم الأغنياء والمترفون والمعنيون باختيار ملابسهم وألوانها . الا أن المصادر الأدبية التي عليها جل اعتمادي ، اهتمت بذكر العلماء والمتصلين بالخليفة وبعض « العلية » ودونت ملابسهم وألوانها ، فمعظم المعلومات التي أذكرها في هذا المقال تتعلق بألوان ملابس « طبقة » معينة ولكن يجدر أن نلاحظ أن هذه الطبقة كانت لها مكانة كبيرة في المجتمع ، وكانت أنموذجاً يقدره الآخرون ويعملون على الاحتذاء به ، فملابسهم وألوانها تمثل « المثل العليا » التي يعمل الكثيرون على تقليدها ونشرها بين الناس فهي منتشرة بين أفراد وأوساط اكثر بكثير من العدد القليل الذي صرحت المصادر بذكر اسمائهم ثم أن كتب الفقه تهتم بما ينبغي أن يسود عند سواد الناس وعمومهم . فالألوان التي تشير الى إستعمالها كانت هي السائدة بين الغالبية العظمى من الناس في بيئات الفقهاء الذين ألفوا تلك الكتب على الأقل .

إن المعلومات المذكورة في المصادر التي اعتمدت عليها مستمدة بالدرجة الأولى ممن سكن المدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق . ويلاحظ أن أهل

هذه الأمصار هم من جزيرة العرب ، وأن الاتصال بينهم كان وثيقاً ، بدليل الوحدة الظاهرة في ألوان ملابسهم ، والراجح أن ماذكر عنهم ينطبق على ألوان البسة من لم تذكرهم المصادر من العرب .

لم يبق من نماذج ألبسة العهود الأسلامية الاولى إلا عدد قليل جداً تحتفظ به بعض المتاحف ، ونظراً لأن ما وصلنا قليل جداً ، فلا يمكن الادعاء بأنه يمثل السائد في تلك العصور ولا يصح الارتكاز عليه وحده لدراسة الألبسة والألوان في العهود الأسلامية الأولى (١) .

ولم أرجع في هذه الدراسة الى المصادر المعاصرة غير العربية كالسريانية أيضاً لأن المطبوع منها لم يشر الى الملابس وألوانها فضلا عن أنها لم تهتم كثيراً بدراسة العرب المسلمين وأحوالهم ، بله ملابسهم وألوانها .

لقد كان اعتمادي الاكبر في هذه الدراسة على المصادر الأدبية وخاصة كتب اللغة والحديث والتراجم والتاريخ ، وأقدم مادوّن من هذه المصادر يرجع الى أواخر القرن الثاني الهجري فما بعد ، غير أن الاهتمام الكبير بتتبع أخبار أهل صدر الاسلام ، والعناية الفائقة في تحري الدقة في نقل أخبارهم يبرر الاعتماد على ما أوردوه من معلومات عن الأزمنة التي سبقتهم ، علماً بان كثيراً مما كان سائداً في العهود الأولى إستمر مستعملاً الى الزمن الذي بدأ فيه التدوين .

ولعل أوسع مادة عن الألوان موجودة في كتب المعاجم التي رتبت معلوماتها باحدى طريقتين : أولهما تبعاً للمواضيع والثانية تبعاً لحروف الالفباء .

وأبرز الكتب التي بحثت عن الألوان متبعة الطريقة الاولى هما كتابا « فقه اللغة » للثعالبي و « المخصص » لابن سيدة .

---

١ – يقول الدكتور زكي محمد حسن « لانكاد نعرف اليوم نماذج تستحق الذكر من منتجات ايران وصناعة النسيج في فجر الاسلام » (الفنون الايرانية ٢١٤ وانظر ايضاً الفنون الاسلامية ٢٤٩ فما بعد)

وأما كتاب الثعالبي فإن فيه فصلين أحدهما عن الألوان (٧٠–٧٧) بحث فيه المفردات المستعملة في لون البياض ،والسواد والحمرة في الانسان والحيوان كما عقد فصلاً آخر عن ألوان الثياب (٢٤١–٢٤٣) ومادته ذات قيمة كبيرة ، وهي يسيرة المتناول ، إلا أنها مقتضبة .

وأما كتاب المخصص فهو كتاب ضخم مرتب حسب المواضيع ، وعرض للمفردات والتعابير المتعلقة بكل موضوع ، وقد كتب فصلاً عن النبات الذي يُصطبغ فيه ويُختضب (١١/٢٠٩–٢١٣) وفيه ذكر لعدة ألوان مستعملة في الملابس ، إعتمد فيها على عدد من اللغويين والنباتيين القدماء .

أما المعاجم المرتبة على الالفباء ، فقد اعتمدت منها على « لسان العرب » لابن منظور نظراً لأنه من أوسع المعاجم وأكثرها توثقاً ،وقد نقل في المواد التي بحثها أقوال عدد من لغويي القرن الثاني والثالث الهجري ، كما نقل عن ابن سيدة وأورد بعض الأحاديث نقلاً عن النهاية لابن الاثير . ومادته دسمة ، الا أن ترتيبه على المعجم قد يُضَيِّع على المتتبع لبعض الألوان ، وقد كان عليه جل اعتمادي في معرفة آراء اللغويين ومعرفتهم بالألوان .

وقد نظم السيد علي بن العِزّ أرجوزة في الألوان ، نشرها مع شرح واف العلامة محمود شكري الآلوسي في المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

وفي كتب الحديث معلومات غير قليلة عن ألبسة الرسول (ص) والصحابة وعن الألوان: وقد عقدت بعض هذه الكتب فصولاً خاصة عن لباس الرسول وألوانه ، وعن ألبسة الاحرام . وقد يسّر المعجم المفصل لألفاظ الحديث النبوي ، الذي تم باشراف فنسنك مراجعة هذه الاحاديث وكان عليه جل اعتمادي في دراسة ما يتعلق بالألوان من احاديث الرسول علماً باني رجعت إلى الكتب الأصلية لتدقيق بعض النصوص ، وخاصة المهمة منها في بحثي .

أما كتب الفقه فهي تسجل الصورة الشرعية المقبولة لسلوك المسلمين في مختلف جوانب الحياة ، وقد تطرقت هذه الكتب الى ألوان الألبسة عند إشارتها إلى المباح أو المكروه أو المحرّم . ولهذه الاشارات أهمية كبيرة لأنها تسجل الألوان الشائعة بين الناس ، وتعبر عن رأي الأوساط المتدينة فيها كما تلمح إلى الشائع من الألوان بين الناس .

وقد تميزت المؤلفات الفقهية الأولى التي وصلتنا ،وخاصة « الموطأ » و « المدونة » لمالك بن انس ، و « الجامع الكبير » و « الحجج » لمحمد بن الحسن الشيباني و « الأم » للشافعي و « الكافي » للكليني بأنها تعبر عن معرفة وعلم وخبرات مؤلفيها فيما كان معروفاً في عصر الرسول والصحابة والتابعين ، وفي عصر مؤلفيها ضمن نطاق الصورة العامة الفقهية . ولهذه الكتب الأولى اهمية خاصة في دراستي نظراً لأنها كتبت في الامصار التي اكثر سكانها من العرب والتي يسود فيها ذوق العرب. اما الكتب الفقهية المتأخرة فلم أتعمق في دراستها لأنها تميل إلى نقل المعلومات التي وردت في الكتب القديمة وقلما تشير الى الأحوال السائدة في العصر الذي دونت فيه .

أما كتب التراجم فأهمها لدراستي هو كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) وهو مكون من ثمانية أجزاء ضخمة في تراجم الرسول (ص) والصحابة والتابعين والعلماء ممن عاش في المدينة ومكة والكوفة والبصرة خاصة ، وقد إهتم بتسجيل ملبوسات بعض المترجم لهم ، وخاصة البارزين منهم ، وبألوانها . وقد نقل معلوماته عن رواة معتمدين ، واعتمد عليه المتأخرون دون أن يضيفوا كثيراً على ماذكر في هذا الموضوع . ومعلوماته عن الألبسة وألوانها مذكورة في في تراجم لابسيها ، فهي متفرقة في ثنايا هذا الكتاب الضخم .

ويلاحظ أن ابن سعد من علماء الحديث ، وهو متأثر بالمثل المقبولة في أوساطهم ولعل لهذا أثراً في اختياره المادة التي أوردها في كتابه ، فهو يهتم بالدرجة الاولى بالإشارة إلى ماهو مقبول أو مكروه عند هذه الأوساط ، علماً بأن ذلك يعبر عن المثل المقبولة عند السواد الأعظم من أهل تلك الأمصار ، وعما كان سائداً عندهم . وإن المادة التي جمعها إبن سعد بتأثير هذه النظرة التي ذكرتها ، جعلته لايعنى كثيراً بالألبسة والألوان الشائعة بين بعض رجال الحكم والإدارة او الأغنياء والمترفين وأهل الانس ، أو ألبسة الأعاجم في خارج الأمصار أو ألبسة أهل الذمة .

ويكمل المادة التي أوردها إبن سعد ماجاء من معلومات في بعض كتب الأدب والتاريخ ومن أبرزها كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني (ت ٣٥٦هـ) الذي جمع مادة ضخمة عن الشعراء ورجال السياسة والإدارة والمتصلين بالخلفاء والمغنين وذكر ملبوسات بعضهم وألوانها معتمداً على مصادر معتبرة . فمادته تشمل ما كان سائداً في أوساط أهمالها إبن سعد ، وبذلك تكون مادته مكملة لما أورده ابن سعد .

وفي كتاب (عيون الاخبار) لإبن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) معلومات قيمة رغم قلتها عن ألوان الألبسة عند « العلية » من رجال الإدارة والبلاط .

ولكتاب « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠) أهمية خاصة فهو أوسع كتاب عن الأحداث السياسية الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري وقد أشار في ثنايا بحثه إلى ملبوسات بعض كبار الرجال ، وخاصة الخلفاء والقواد والولاة ، وذكر ألوان ألبستهم .

وفي كتابي (التاريخ) لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) و (مروج الذهب) للمسعودي (ت ٣٤٦هـ) إشارات قليلة ولكنها قيّمة عن الألبسة وألوانها ، وفي كتاب (البدء والتاريخ) للمطهر المقدسي إشارات الى الألوان التي أتخذتها بعض الفرق شعاراً لها . وبعض هذه الإشارات وردت في كتب الفرق .

أما الدراسات الحديثة فأكثرها اختصت بدراسة الالبسة والمنسوجات ، وفيها بعض الإشارات الى الألوان . ومن أقدمها كتاب « المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية الذي نشره رينهارت دوزي سنة ١٨٤٣ وترجمه الدكتور أكرم فاضل الى العربية سنة ١٩٧١ . وقد قدم دوزي كتابه بمقدمة ، ثم أتبعه بذكر وصف عدد كبير جداً من الألبسة التي استعملت في البلاد الاسلامية مرتبة على الحروف الهجائية . وقد إهتم بصورة خاصة في الأقسام الغربية من العالم الاسلامي ، واعتمد على عدد كبير من المصادر ، وخاصة كتاب السلوك للمقريزي ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكذلك كتب الرحالة الغربيين ، غير أنه بالنظر لقدم تأليف الكتاب فان دوزي فاتته معلومات كتب كثيرة طبعت فيما بعد . كما أنه لم يهتم كثيراً بالمعلومات المتعلقة بألوان الملابس ، وهي التي نقصر عليها هنا دراستنا ، ففائدته محدودة لهذا المقال .

وقد نشر الاستاذ ماير كتابه عن الملابس المملوكية سنة ١٩٥٢ وقد ترجمه الى العربية صالح الشيبي سنة ١٩٧٢ . وفي هذا الكتاب مادة غنية منظمة تبعاً للابسيها من الخلفاء والسلاطين وكبار الموظفين والعلماء والعامة . ومع الإشارة إلى مادتها وألوانها ، غير أن بحثه مقتصر على الفترة المملوكية المتأخرة عن الفترة التي ندرسها .

ونشر الاستاذ سارجنت في مجلة Ars Islamica مقالات عنوانها (مواد لدراسة المنسوجات الاسلامية) في العصور الوسطى مصنفة تبعاً للمواقع الجغرافية لأماكن إنتاجها ، وقد أورد في دراسته مادة واسعة مستوعبة ، غير أنه خصص فصلاً قصيراً عن الصباغين قدم فيه نصوصاً عن الصباغين اليهود وعما ذكرته بعض كتب الحسبة عن الصباغة . وأكثر مادته عن المنسوجات العباسية أما ألوانها فلم يهتم ببحثها .

ومن المعلوم أن الألوان كثيرة ، وأن اللون الواحد يختلف في مدى خفته و كثافته أو مدى صلته وامتزاجه بالالوان الأخرى ، وهذا يقتضي ملاحظة الألوان الأساسية الخالصة ، والمركبة أي الممتزجة مع الألوان الأخرى ، كما يقتضي أيضاً بيان درجة خفة و كثافة كل لون . وقد وردت في اللغة العربية نصوص تفيد في فهم العرب للألوان .

فقد ذكر الثعالبي في الفصول التي خصصها للألوان في كتابه « فقه اللغة » تفاصيل عن كل من اللون الأبيض والأسود ، ومعلومات عن اللون الأحمر ، وإشارة واحدة فقط الى اللون الأخضر . ولعله كان في ذهنه ، وإن لم يصرح بذلك أن هذه الألوان هي الأساسية وذكر الشيخ علي بن العز الحنفي الشهير بالجارح في ارجوزته عن الألوان أنواع الأسود والأحمر والأخضر والأبيض .

وتطرق الجاحظ في كتاب الحيوان الى الألوان فقال « البياض مياع مفسد لسائر الألوان » وأن « البياض ينصبغ ولا يصبغ ، والسواد يصبغ ولا ينصبغ ، وليس كذلك سائر الالوان لأنها كلها تصبغ وتنصبغ » وقال أيضاً « إن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة ، ومتى اشتدت الحمرة صارت سواداً وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت سواداً » وذكر ان البعض يرى ان « الألوان كلها إنما هي السواد والبياض » (١) .

وبين العلامة محمود شكري الآلوسي في شرحه لأرجوزة الألوان أن البياض هو أساس الألوان ، ونقل بعض آراء ابقراط وابن سينا في ذلك (٢) .

وذكر مؤلف كتاب « مفرج النفس » أن الالوان « تنقسم الى قسمين بسيط ومركب ، فالبسيط عند بعضهم لونان : الابيض والاسود ، وعند بعضهم

١- الحيوان ٥/٥٧-٥٩ .

٢- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١-٣/٧٧ .

اربعة ، وهي الابيض والاسود والاحمر والاصفر وما يتركب منها وتولد الاخلاط السوداوية وما يحدث عنها من الفكر الردية والهموم المؤذية والأحزان الملازمة . » وتعمى القلوب . والألوان المفرحة على ماقررنا وهي الأ بيض والأحمر والأخضر والاصفر (١) .

وقد أدرك العرب الاختلافات في اللون الواحد ووضعوا كلمات يعبر كل منها عن نوع خاص من اللون ، وقدم بعض اللغويين شروحاً لتوضيح هذه الكلمات وتبيان الفروق بينها . وهذه الكلمات متفرقة تبعاً لمواضعها في المعاجم . غير أن الثعالبي في كتاب « فقه اللغه » والعز في ارجوزته جمع كثيراً منها مصنفة، وذكرت بعض كتب الاحجار ، واهمها كتاب الجماهر في معرفة الجواهر « للبيروني » أنواع بعض الألوان .

فأما اللون الأبيض فقد ذكر الثعالبي منه (الأبيض اليقق ، اللهق ، الواضح، الناصع ، الهجان ، الخالص ، ثم ذكر إسم الأبيض من البشر والحيوان والنبات) وأسمه إذا اختلط بالحمرة أو الصفرة أو الغبرة ، واسم البياض إذا كان في خلفية مخالفة .

وذكر علي بن العز في أرجوزته :

أبيض ملاح ليـاح دمرغ ثم فقاعى صراحى(كذا)
ويقـق ولهـق وناصـع (٢)

وذكر البيروني من الأبيض اليقق (٣) والبلوري (٤) .

اما الأسود فقد فصّل قدامة والثعالبي وعبد الرحمن بن عيسى والنويرى في اختلافها

١- نشره بشر فارس في كتاب « سر الزخرفة الاسلامية » ص ٣٩-٤٠ .
٢- مجلة المجمع العلمي العربي ١-١١٢/٤ .
٣- الجماهر في معرفة الجواهر ٥٠ .
٤- كذلك ص ٧٩ .

في الخيل ، وصرح عبد الرحمن بن عيسى بان ما ذكره مستعمل في ديوان العرض (١) .

وذكر الثعالبي في فصل عنوانه « في ترتيب السواد على القياس والتقريب » أنواع السواد فقال « أسود وأسحم ، ثم جون وفاحم ، ثم حالك وحانك ، ثم حلكوك ومحكوك ، ثم خداري ودجوجي ثم غربيب وغدافي » وأورد فصلاً آخر « في لواحق السواد » وهي « أخطب ، أغبس ، أغبر ، قاتم ، أصدأ ، أحوى ، أكهب أربد ، أغثر ، أدغم ، أطمس ، أورق ، أخصف » (٢) .

وقال العز :

أسود حالك أهـــم لوبي محلنكـــك واحلـــولك ونـــوبي
وغيهب وغيهـــم وفاحـــم وحالك ومـــدلهم قاحـــم
كذاك ديجـــوري أو غرابي كحنك او حلك الغراب (٣)

اما البيروني فذكر مع الأسود ألواناً عدها قريبة منه ، فقد ذكر « قالوا في الأسود انه النفطي والكحلي ، وهما من أنواع الأكهب (٤) وذكر « البنفسجي الضارب الى الكهوبة » و « اللعل بنفسجي وأكهب وأخضر وأصفر » (٥) وذكر « الأكهب أجوده الطاووسي ثم الاسمانجوني ثم النيـــل ثم الآب جون وهو أقرب الى البياض ، ومن أنواعه الكحلي والنفطي وان ضربا الى السواد »(٦) . وقد ذكر ابن منظور ما يوضح اللون الأكهب فقال « الكهبة غبرة مشربة سواداً في

---

١ – انظر عن الاسود وبقية الالوان والتعابير المستعملة لها في الدواوين الثعالبي : فقه اللغة ١٢٢ فما بعد
٢ – فقه اللغة ٧٣–٧٥ .
٣ – مجلة المجمع العلمي العربي ١–٣/٧٨ .
٤ – الجماهر ٧٩ .
٥ – الجماهر ٨٦ .
٦ – الجماهر ٧٥ .

ألوان الابل . . . الجوهري الكهبة لون مثل القهبة ، قال ابو عمرو الكهبة لون ليس بخالص من الحمرة وهو في الحمرة خاصة ، وقال يعقوب الكهبة لون الى الغبرة . . . قال الأزهرى . . . ولعله يستعمل في الوان الثياب . الأزهري قال ابن الاعرابي وقيل الكهبة لون الجاموس » (١) .

اما الأخضر فلم يذكر الثعالبي أنواعه ، ولكن العز ذكره فقال .

اخضر مدهـــام كـــذاك ناضـــر وحـــاني(٢)

وذكر البيروني اصناف الالوان الخضراء فقال ان الكركند (خلوقي وزيتي وفستقي واسما نجوني) (٣) وان « الكركهن منه الخلوقي والزيتي وبوقلمون . . . يوجد فيه كل لون من الخلوقية والصفرة والخضرة السماوية (٤) » « ومن أصناف الكركند والكركهن الأصفر والفستقي والزيتي والخلوقي » (٥) وأن « الياقوت الاخضر ان خير أخضره الزيتي ثم الفستقي ثم ينحط لونه بالتدريج حتى يبلغ البياض » (٦) اما الأصفر فذكر البيروني « الأصفر المختار منه هو المشبع بالصفرة المقارب بالتشبه بالجلنار من الأحمر ، وبعد المشمشي ، ثم الأترجي ، ثم التبني (٧) وذكر « الأصفر الفاتح والخلوقي والجلنار » (٨) ويقول ابن منظور ان الخلوق « تغلب عليه الحمرة والصفرة »(٩) .

١- لسان ٢/٢٢٤ .
٢- مجلة المجمع العلمي . ١-٣
٣- الجماهر ٥٢ .
٤- الجماهر ٧٤-٧٦ .
٥- الجماهر ٧٤-٧٦ .
٦- الجماهر ٧٨ .
٧- الجماهر ٧٤ .
٨- الجماهر ٧٥ .
٩- لسان ١١/٢٧٩ .

ويذكر ان العقيق اليماني لونه « الصفرة الذهبية المشرقة . . . ومنه ما يشرب خضرته حمرة ، المشمشي والرطبي والتمري والكبدي (١) .

اما الأحمر فلم يذكر الثعالبي أنواعه ، ولكنه ذكر الأسماء التي تسمى بها بعض المواد الحمراء اللون ، وأسماء بعض الالوان التي تخالطها الحمرة . (٢)

وقال العز :

أحمر قاني بجراني عضب ذريحي وأرجواني
أسلغ سلفة وقرف مانع وباحري نكع وناصع
قالقرف نصاع فقاعي زاهر (٣)

غير ان ابن منظور والبيروني ذكرا تفاصيل عن أنواع الألوان الحمراء ، فقد ذكر ابن منظور « الأرجوان هو الشديد الحمرة ، ولا يقال لغير الحمرة أرجوان ، والبهرمان دونه بشيء من الحمرة ، والمفدم المشبع حمرة ، والمضرج دون المشبع ، ثم المورّد بعده» (٤) ويقول في موضع آخر « المضرج دون المفدم وبعده المورد » (٥)

وقد قدمت بعض كتب الاحجار معلومات عن أنواع الحمرة ، فيقول الجاحظ « وخير الياقوت البهرماني ثم الأحمر المورد ، ثم الاصفر ، ثم الآسمانجوني (٦)

وذكر البيروني في كلامه عن الياقوت تفاصيل عن اللون الاحمر فقال « ولون الياقوت الأحمر يترتب فيما بين طرفين : أحدهما أقصى الغاية المطلوبة فيه والآخر أقصى الرذالة التي تسقط عندها الرغبة فيه : فأجوده الرماني ثم البهرماني

١- الجماهر ١٧٣
٢- فقه اللغة ١٣٤ .
٣- مجلة المجمع العلمي العربي ١-٣/٨١ .
٤- لسان ١٤/٣٢٧ .
٥- لسان ١٥/١٤٦
٦- التبصر بالتجارة ٩

ثم الأرجواني ثم اللحمي ، ثم الجلناري ، ثم الوردي »(١) ثم يضيف بعدها « وقد قيل في الرماني والبهرماني وأنهما صفتان لموصوف واحد ، إلا أن الأول برسم أهل العراق ، والآخر برسم أهل الجبل وخراسان . وشهد لهذا ترتيب الكندي ألوانه ، فانه جعل البهرماني أعلى درجاته . . . وابتدأ الكندي بالوردي آخذاً من جنبة البياض الى لون الورد ، ووضع الخيري فوقه من الوردية الى ان تبلغ مشابه وردة الخيري ، وفوقه الأحمر الصفري في صبغ العصفر الناصع المشرق التابع للزردج ، ثم البهرمان العصفري الخالص الذي لايشوبه شيٌ من النشاستج الزردج ، يتفاضل من عند الاحمر الى ان ينتهي الى عند الغاية وهي البهرماني .

وقيل في كتاب مجهول ان خير اليواقيت البهرماني ثم المورد ، وقيل في الأرجواني « انه شديد الحمرة ، فان كان دونه فهو بهرماني والبهرمان هو العصفر ، يقال ثوب مبهرم أي معصفر » (٢) .

ان الانواع التي ذكرنا ماكتبته المصادر الرئيسة عنها تنطبق على مظاهر الطبيعة او الاحجار الكريمة ، ولا ينطبق منها على ألوان الألبسة الا أنواع الألوان الحمراء أما بقية الألوان فقد ذكرت الرئيسة منها ، وقلما يذكر من فروع هذه الالوان في الألبسة غير ألوان الاصباغ التي ولدت من تلك الالوان . ومن المعلوم أن كثيراً من الأصباغ كانت نباتية مألوفة في تلك العهود ثم بطل استعمالها ، الامر الذي يتطلب جهداً لمعرفة تلك الالوان . وقد أوردت في بحثي عن كل لون المعلومات المتوفرة عن مادة الصبغ كالزعفران والعصفر والورس . غير أنني أؤكد أن كثيرا من الألوان لم يذكر منشأ صبغها . ولعل في كتب الكيمياء معلومات أوفى عن

١- الجماهر ٣٣ .

٢- الجماهر ٣٤-٣٥ .

الاصباغ ،وأورد هنا انموذجاً اقتبسته من مختار رسائل جابر بن حيان في الموضوع وارجوان يلفت نظر الباحثين لمعلومات أوسع وأدق في هذا الميدان .

ذكر جابر « قاعدة الأصباغ عندهم النوشادر ، واللون الذي يراد كالصفرة من الزرنيخ والنوشادر . والأخضر من مياه الأوراق الخضر والنوشادر المحلول فيها والابيض من مياه الالوان (البيض والنوشادر) المبيض ، وكذلك ان صبغ بغير هذه مما في طبعه أن يصبغ ذلك اللون كأيصال الزرنيخ في الأصفر من الألوان واستعمال الزعفران وما جرى مجراه ، وكذلك في جميع الألوان » (١) .

ويذكر ابن الفقيه في كلامه عن تفليس بارمينية « وبها من الشب المنسوب إليها وهو شب الحمرة المعروف باليماني ، ومنها يحمل الى اليمن وواسط ، ولا ينصبغ الصوف بواسط إلا به ، وهو أقوى من المصري » (٢) ويذكر ابن البيطار « شب ، ديوسقوريدس في الخامسة ، اصنافها كلها او القليل منها توجد في معادن باعيانها بمصر ، وقد يكون في مواضع أخرى » (٣) .

ويختلف اللون الواحد في مدى تشبعه بالصبغ . وقد أورد اللغويون نصوصاً عما يتعلق بالعصفر والزعفران من ذلك ، فينقل ابن سيدة عن ابي حنيفة الدينوري « ثوب مجسد إذا اكثر فيه الزعفران حتى يجف فيقوم قياماً ، ومنه يقال للدم جاسد » (٤) ويقول ابن منظور « والثوب المجسد هو المشبع عصفراً أو زعفراناً والمجسد الاحمر ، يقال على فلان ثوب مشبع من الصبغ وعليه ثوب مفدم ، فاذا قام قياماً من الصبغ قيل قد اجسد ثوب فلان اجساداً فهو مجسد . . . والجسد

١- مختار رسائل جابر بن حيان ٣٦١ .
٢- مختصر كتاب البلدان ١٨٥
٣- جامع الادوية المفردة ٣/٥٣ .
٤- المخصص ١١/٢١١ .

ما اشبع صبغه من الثياب » (١) ويذكر ابن سيدة « وثوب مفروك بالزعفران وغيره إذا صبغ به صبغاً شديداً » (٢) .

ومن هذا يتبين أن الثوب اذا كثف صبغه يقال له مشبع ، او مجسد ، او مفروك

والوان الثياب تكون إما بسبب نسجها من مواد أولية ملونة ، أو بسبب صباغها . ومن المعلوم ان بعض مواد النسيج ملونة بطبيعتها ، فالقطن قد يكون أبيض أو وبرياً ، والصوف قد يكون ابيض أو عسلياً او مائلاً الى الحمرة أو السواد ، ومن الطبيعي ان النسيج يتلون بلون المادة التي نسج منها .

أما الثوب المصبوغ ، فقد يتم صبغه بعد نسجه أو بعد خياطته ، أو قد يتم بصبغ الخيوط التي ينسج منها . فأما الصنف الاول فقد أشارت اليه كتب الفقه في معرض الحكم على المشاكل القانونية التي قد تنجم بين اصحاب السلعة والصباغين ، كأن يخطئ الصباغ فيصبغه بغير اللون المطلوب ، أو بتشبع خفيف أو بمواد غير المتفق عليها ، أو في عدم المحافظة على النقاء عند الصبغ أو تخفيفه وقد جاء في المدونة « قلت أرأيت إن اشتريت ثوباً صبغته بعصفر أو بسواد أو بزعفران أو بورس أو بمشق أو بخضرة أو بغير ذلك من الصبغ فزاد الثوب الصبغ خيراً أو نقص ، فأصبت به عيباً دلسه لي البائع »(٣) . . .

وبعض الثياب يصبغ غزلها ، ثم تنسج من الغزل المصبوغ ، وقد أشارت الكتب الى بعض أنواع هذه المنسوجات فيقول الشافعي « وأحب ما يلبس اليّ البياض ، فان جاوزه بعصب اليمن والقطري وما أشبه ، مما يصبغ غزله ولا يصبغ بعد ما ينسج ، فحسن » (٤) وقد ألمح مالك إلى تميز صبغ عصب اليمن ، فقد

١- لسان ٤/٩٢ .
٢- المخصص ١١/٢١١ .
٣- المدونة ١٠/١٦٩ .
٤- الأم ١/١٧٤ .

جاء في المدونة « قلت فهل كان مالك يرى عصب اليمن بمنزلة هذا المصبوغ بالدكنة والحمرة والخضرة والصفرة ، ام يجعل عصب اليمن بمنزلة هذه الثياب المصبغة ، واما غليظ عصب اليمن فان مالكاً وسع فيه ولم يره بمنزلة المصبوغ . (١)

فأما العصب فقد تردد ذكره في مختلف المصادر ، وأشار بعضها إلى صبغه ، فيقول ابن منظور « والعصب ضرب من برود اليمن ، سمى عصباً لان غزله يعصب ، أى يدرج ، ثم يصبغ ويحاك ، وليس من برود الرقم . . .ومنه قيل للسحاب كاللطخ عصب ، وفي الحديث: المعتدة لاتلبس الثياب المصبغة إلا ثوب عصب. : العصب برود يمنية يعصب غزلها ، أى يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشياً لبقاء ماعصب منه أبيض لم يأخذه صبغ وقيل هي برود مخططة ، والعصب الفتل ، والعصّاب الغزّال . فيكون النهي للمعتدة عمـــا صبغ بعد النسيج وفي حديث عمر (رض) أنه أراد ان ينهى عن عصب اليمن ، قال نبئت انه يصبغ بالبول . . . » (٢)

ويطلق العصب على عدة منسوجات اشهرها الحبرة فيذكر مالك « العصب هو الحبر وما أشبهه » (٣) ويروي السمهودى أن عبد الرحمن بن عوف « دفن عليه ثوب حبرة من العصب » (٤) وقد جاء في الحديث « كان أحب الثياب الى رسول الله (ص) يلبسها الحبرة » (٥) .

ويذكر وضاح اليمن ما يدل على أن من العصب ايضاً الثياب الجندية فهو يقول :

١- المدونة ١١٣/٥ .

٢- لسان ٩٢/٢ وانظر عن اباحة صبغ العصب في الاحاديث التي وردت في كتب الصحاح : فنسنك . مادة (عصب) وانظر ما كتبناه في مجلة الابحاث « الانسجة في القرنين الاول والثاني » ص ٥٦٤-٥ (سنة ١٩٦٢) .

٣- المدونة ١٨٨/١ .

٤- وفاء الوفا ٨٩/٢ .

٥- البخاري لباس ١٨ الترمذي لباس ٤٥ ، وانظر مقالنا عن الانسجه ٥٦٢-٣ .

وتلبس من بز العراق منـــاصفاً وابراد عصب من مهلهلة الجند(١)

والعصب من المنسوجات الغالية فيروى عن معاذ أنه قال « شر النساء اذا تحلين بالذهب ولبسن ريط الشام وعصب اليمن ، فاتعبن الغني وكلفن الفقير ما لايجد » (٢) .

والعصب لم يكن يصنع الا في اليمن فيقول الاصمعي « أربعة أشياء قد ملأت الدنيا لاتكون الا باليمن ، الورس والكندر والخطر والعصب » (٣) ويقول المقدسي « اليمن معدن العصائب » (٤) ويتبين مما ذكره ابن منظور .

١— أن العصب يصبغ غزله قبل حياكته .

٢ أن طريقة صبغه هي ان يدرج (اي يلف ويشد) .

٣— أن كل خيط من خيوط نسيجه يكون مبقعاً ، أي أن بعضه مصبوغ وبعضه أبيض .

٤— الثوب المنسوج بالعصب يكون ذا ألوان متعددة ، أي كالموشّى وقد يكون مخططاً .

٥— ان اصباغه خاصة ، ويقال انه يدخل فيه البول (النوشادر ؟) .

٦— انه يقابل برود الرقم .

ويضاف الى خصائصه مما ذكرته النصوص الاخرى .

٧— بعض العصب غليظ وبعضه رقيق .

٨— العصب انواع ، منه الحبرة ، والجندية .

١— الاغاني ٦/٢٣٦ .

٢— عيون الاخبار ٤/١١٤ .

٣— كذلك ٢/١٠٩ وانظر جامع الادوية المفردة ٤/٨٣، ١٩١ .

٤— أحسن التقاسيم ٩٨ .

٩ــ الثياب القطرية تصبغ على نفس الطريقة .

١٠ــ العصب من الثياب الغالية الثمن ومن لباس الارستقراطية .

١١ــ ان اليمن كانت تحتكر صناعة العصب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل . غير أن الكليني يذكر ما يدل على ان صناعتها كانت تقلد في البصرة فهو يروى عن يسند عن الحسن بن راشد أنه سأل جعفر بن الصادق عن ثياب تعمل بالبصرة على عمل العصب اليماني من قزوقطن هل يصلح أن يكفن فيها الموتى : قال إذا كان القطن أكثر من القز فلا بأس » (١) .

لم تذكر المصادر أصباغ وألوان العصب ، غير أن غلاء اثمانه واقتصار صنعه على اليمن قد يدل على أن ألوانه المتعددة تظهر منسجمة ترتاح اليها النفوس الأرستقراطية التي تلبسه ، وهذا يتطلب مهارة فائقة في الحياكة ، ولعل هذه المهارة ، وأسرار الاصباغ المستعملة فيه هي التي مكنت أهل اليمن من احتكار صناعته . وقد وردت في الكتب اشارة الى بعض ثياب اليمن التي تصبغ بالنبول (٢) .

لقد ذكرنا أن وضاح اليمن ذكر في إحدى قصائده « أبراد عصب من مهلهلة الجند » وقد ورد في بيت لعمر بن ابي ربيعة ما يشير الى طريقة تكوين الجندية حيث يقول .

شف عنها محقق جنـــــدى فهي كالشمس من خـــلال السحاب

ويقول الاصبهاني الذي روى هذا البيت « الثوب المحقق هو الوشي على صورة الحقق » (٣) .

١ــ الكافي ١٤٩/٣ .

٢ــ انظر البخاري : صلاة ٧ ؛ ابن حنبل ١٤٣/٥ .

٣ــ الاغاني ٢٤٠/١ وانظر لسان ٣٤/١١ .

ويقول ابن منظور « ثوب محقق عليه وشي على صورة الحقق »، كما يقال برد مرجل وثوب محقق ويقول عن الحقق « حقاق الشجر صغارها شبهت بحقاق الابل . . والحقة هذا المنحوت من الخشب والساج وغير ذلك . . قال رؤبة « سوى مساحيهن تقطيط الحقق » .وصف حوافر حمر الوحش ؛ أي أن الحجارة سوت حوافرها كأنما قططت تقطيط الحقق » (١) .

ولا ريب في أن كثيراً من المنسوجات والثياب ذات ألوان متعددة بأشكال مختلفة ، وهذه الألوان والأشكال قد تكون في أصل المنسوج بسبب تنوع ألوان خيوط النسيج ، أو قد تكون مطبوعة ومنقوشة عليها بعد انجاز نسجها ، ويسمى هذا النوع الاخير الوشي . وقد تردد ذكر الوشي في المصادر التي ذكر بعضها انواعاً من الوشي كما ذكر بعضها اشكال النقوش ، وكلاهما يرتبط بالنقش وليس بنوع القماش . والواقع ان المادة التي بين ايدينا لاتكفي للتمييز بدقة بينهما . وسنذكرها فيمايلي مؤملين أن تتوفر في المستقبل مادة أوفر نتمكن بها من التحقق من الفرق بينهما

يذكر ابن منظور عن الجوهرى ان الوشي مـــن الثياب معروف وعن ابن سيدة أنه يكون من كل لون ، وأن الوشي في اللون خلط لون بلون (٢) وهذا التعريف بالطبع لايستلزم أن يكون الوشي مرادفاً لما يسمى البرودرى اليوم ، فقد يكون الخلط في أصل الحياكة أو في طبع القماش بصبغ على سمات خاصة .

وقد ميز الشافعي بين الثياب الملونة بالوشي وغيره فقال في باب السلف من الثياب حيث يجب أن تحدد أحوالها بدقة « إن كان وشياً نسبه يوسفياً أو نجرانياً أو فارعاً أو باسمه الذي يعرف به ، وان كان غير وشي من العصب وما أشبه وصفه ثوب حبرة » ويقول أيضاً « هكذا هذا في الثياب يقال هذا من وشي صنعاء والوشي الذي

١- لسان ١١/٢٤٠ .

٢- لسان ١٩/٢٧١ .

يقال له اليوسفي » (١) وقد ذكر الجاحظ أصناف الوشي فقال « وخير الوشي الثوب السابري ؛ ،والكوفي ، والابريسمي ، والمذهب المنسوج ، ثم الوشي الاسكندراني البحت ، ثم المنسوج بالذهب ثم الوشي الغزلي ، ثم الذي لا ابريسم فيه ولا ذهب وهو اليماني لانه يرتفع على هذا السبيل من الغزلي . والابريسمي الكتان لايبلغ في الثمن ما يبلغه اليماني ، لانه ربما بلغ الثوب الغزلي الف دينار (٢)

ويتبين من كلام الجاحظ ان الوشي عرفت به عدة اماكن منها سابور ، والكوفة ، والاسكندرية . والواقع أن المصادر ذكرت وشي العراق فقد ذكر الاصبهاني « ثياب من وشى وخز العراق » (٣) وقال حميد بن ثور .

تخيرت إمـا أرجوانياً مهـذبـاً وإما سجلاط العراق المختّمـا

وقد عرّفت بعض الكتب السجلاط بأنها « ثياب موشاة كأن وشيه خاتم » (٤)

غير أن أشهر الاقاليم التي عرفت بالوشي هي اليمن ، فبالاضافة الى اشارات الشافعي والجاحظ التي ذكرناها أعلاه يذكر الاصبهاني عن عمر بن ابي ربيعة «عليه حلة موشية يمانية» (٥) ويذكر أن الفرزدق «طلع في حلة أفواف يمانية موشاة » (٦) .

ويلاحظ أن اليمن هي التي اشتهرت بالوشي وهي التي احتكرت العصب ، فيقول الثعالبي « يقال وشي اليمن وعصب اليمن ، ويضرب بها المثل في الحسن وتشبه بالرياض والالفاظ ، ويقال من نفائس الملابس برود اليمن » (٧) . ولعل

١- الام ٣/١٠٨ .
٢- التبصر بالتجارة ٢١ .
٣- الاغاني ٩/٢٤٤ .
٤- لسان ٩/١٨٤ المعرب للجواليقي ٨٢ .
٥- الاغاني ١/٩٩ .
٦- الاغاني ٩/٣٣٨ وانظر ايضاً ٨/٢٥٩ .
٧- ثمار القلوب ٥٣٤ .

اشتهار اليمن بالوشي والعصب ، واتناقهما بالنقوش ، كان من أسباب الخلط بين الزخارف الناجمة عن التطريز (البرودري) والزخارف التي من الاصباغ ، هذا بالاضافة الى غلاء ثمن كليهما . وان بعض ما تذكر المصادر الأدبية أنه وشي ، هو في الحقيقة اصباغ منوعة للثوب ، ولذلك اوردته في هذا المقال . ويلاحظ أن ابن البيطار يقول « البرود وهي العصب » (١) ويقول الليث « البرد معروف من برود العصب والوشي » (٢) ويقول ايضاً « الفوف ضرب من عصب البرود » (٣) .

لقد ذكر الوشي في بعض النصوص مجرداً وغير مقترن بأي نسيج فيروي المغني ابن سريج « دعاني فتية من بني مروان ، فدخلت اليهم وأنا في ثياب الحجاز الغلاظ الجافية ، وهم في القوهي والوشي يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية » (٤) .

وتردد في المصادر ذكره مقروناً بالحلل ، فذكر الاصبهاني انه كان « على الوليد ابن يزيد حلة وشي » (٥) و « على الفرزدق حلة افواف يمانية موشاة » (٦) وأن عمر بن أبي ربيعة « كان يلبس تلك الحلل من الوشي » (٧) .

وذكرت المصادر أيضاً مقطعات الوشي ، فذكر الاصبهاني أنه كان للنصيب مقطعات وشي (٨) وذكر ابن سعد أنه « كان أبو وائل يلبس مقطعات اليمنه » (٩)

١- جامع الادوية المفردة ٤/٨٣، ١٩١ .
٢- لسان ٤/٥٤ .
٣- لسان ١١/١٨٠ .
٤- الاغاني ١٣/٣١٠ .
٥- الاغاني ٣/٣٠٨ .
٦- الاغاني ٩/٣٨٨ .
٧- الاغاني ١/٨٦ .
٨- الاغاني ١/٣٣٨ .
٩- ابن سعد ٦/٦٨ .

وينقل ابن منظور عن ابي الهيثم ان « القطع ضرب من الثياب الموشاة ، والجمع قطوع . والمقطعات برود عليها وشي مقطع » (١) .

وورد في المصادر البسة متعددة موشاة ، فقد ذكر الاصبهاني انه كانت على الوليد بن يزيد قلنسوة وشى مذهبة (٢) وأنه كان عليه جبه وشي ، ورداء ، وخف وشى (٣) ، وأن النصيب دخل على عبد العزيز بن مروان في جبة وشي (٤) .

ويبدو أن اكثر اشكال التلوين شيوعاً هـو المخطط ، وهـذا يتجلى في البرود ، فيقول ابن منظور « قال ابن سيده : البرد ثوب فيه خطوط ، وخص بعضهم به الوشي . . . والبردة هي الشملة المخططة قال الليث « البرد معروف من برود العصب والوشي » (٥) .

وقد ذكرت المصادر عدة انواع من البرود المخططة منها الحبير وقد عرفه ابن منظور « الحبير من البرود ماكان موشياً مخططاً » (٦) ومنها الأتحمي وهو « ضرب من البرود . . . ويقال تحمت الثوب إذا وشيته ، وروى عن الفراء : «التحمة البرود المخططة بالصفرة » (٧) وفي ديوان الهذليين « الاتحمى برود يمانية فيها خطوط حمر » (٨) ويذكر ابن منظور « البرود المذهب هو ارفع الأتحمى (٩) والبرود التزيدية « بها خطوط حمر » (١٠) والرقم هو « ضرب من البرود . . . والرقم

---

١ – لسان ١٠/١٥٦ .
٢ – الاغاني ٧/٩١ .
٣ – الاغاني ٦/٢٨١ .
٤ – الاغاني ١/٩٩ .
٥ – لسان ٤/٥٤ .
٦ – لسان ٥/٢٣٠ .
٧ – لسان ١٤/٣٣٠ .
٨ – ديوان الهذليين ٢/١٤٦ .
٩ – لسان ٢/٣٨٠ ، ١٢/٣٣ .
١٠– لسان ٥/١٨٤ المحيط ١/٢٩٩ وانظر ديوان الهذليين ١/١٠ .

ضرب مخطط من الوشي ، وقيل من الخز ، وفي الحديث أتى فاطمة فوجد على بابها ستر موشى فقال مالنا والدنيا والرقم ، يريد النقش والوشي ، والاصل فيه الكتاب ، ورقم الثوب يرقمه خططه » (١) .

ومن المعلوم أن اليمن اشتهرت بالبرود ، فيذكر الجاحظ ان « من خصائص اليمن السيوف والبرود » (٢) ويذكر الثعالبي برود اليمن (٣) ، كما يذكر « ويقال في نفائس الملابس برود اليمن » (٤) .

غير أن صنع البرود انتشرت فيما بعد في اماكن اخرى ، فيذكر الثعالبي « والرى موصوفة كبرود اليمن ، ويقال لها العدنيات تشبيهاً لها ببرود عدن » (٥)

وقد استعمل العرب منسوجات أخرى مخططة ، ومنها الثياب القطرية التي ذكرنا مما يعصب غزله ويصبغ ثم يحاك .

ومن الالبسة المخططة الفوط وهي « أزر مخططة يشتريها الحمالون والخدم ويتزرون بها بالكوفة » (٦) .

ومن ذلك البرجد الذي يذكر عنه ابن منظور انه « كساء من صوف أحمر وقيل البرجد كساء غليظ ، وقيل البرجد كساء مخطط ضخم يصلح للخباء » (٧)

وقد ذكرت المصادر منسوجات وثياباً فيها نقوش وتصاوير . وقد ذكر الثعالبي عدداً من نقوش الثياب فقال .

---

١ – لسان ١٥/١٤٥ .

٢ – التبصر بالتجارة ٢٢ وانظر لطائف المعارف ١٦٦ .

٣ – لطائف المعارف ٢٣ .

٤ – ثمار القلوب ٥٣٤ .

٥ – ثمار القلوب ٥٣٤ .

٦ – لسان ٩/٢٤٨ .

٧ – لسان ٤/٥٦ .

« اذا كان (الثوب) في وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش فهو معين ، فاذا كان مخططاً فهو معضّد ومشطب .

فاذا كان فيه طرائق فهو مُسَيَّر .

فاذا كانت خطوطه كالسهام فهو مُسَهَّم .

فاذا كانت تشبه العمد فهو مُعَمَّد .

فاذا كانت فيه نقوش وصور كالأهلة فهو مهلّل .

فاذا كان موشى بأشكال الكعاب فهو مكعّب .

فاذا كان فيه كالفلوس فهو مفلّس .

فاذا كان فيه صور الطيور فهو مُطَيَّر .

فاذا كان فيه صور الخيل فهو مخيل (١) .

وقد نقل ابن منظور ماذكره الثعالبي عن المفلس (٢) والمعين (٣) وقال عن المطير انه ضرب من البرود (٤) ، وذكر تفاصيل أوفي عن نقوش بعض الثياب المذكورة أعلاه .

فأما عن المعضد فقال «ثوب معضد مخطط على اشكال العضد وقال اللحياني هو الذي وشيه في جوانبه ، والمعضد الثوب الذي له علم في موضع العضد من لابسه » (٥) .

وقال عن المشطب « شطبه السعف الاخضر الرطب من جريد النخل ، وفي حديث زرع مسبل شطب ، قال ابو عبيد : الشطبة ماشطب من جريد النخل

١- فقه اللغة ٢٤١ .

٢- لسان ٤٧/٨ .

٣- لسان ١٧٧/١٧ .

٤- لسان ١٨٦/٦

٥- لسان ١٨٤/٤

وهو سعفه، شبهته بتلك الشطبة لنعمته واعتدال شبابه ، وقيل أرادت أنه مهزول كأنه سعفة في دقتها . . وقال ابو سعيد : الشطبة السيف . . . وثوب مشطب فيه طرائق » (١) ويقول عن الطرائق انه « أخدود من الأرض أو ستقة ثوب أو موشى ملزق بعضه ببعض فهو طريقة . . . طرائق نسيجة تنسج من صوف أو شعر عرضها عظم الذراع وأقل، وطولها أربع أذرع أو ثمان أذرع على قدر رؤوس العمد » (٢) .

ويقول ابن منظور عن المسير « ثوب مسير وشيه مثل السيور ، وفي التهذيب اذا كان مخططاً ، وسَيّر الثوب والسهم جعل فيه خطوطاً ، وعقاب مُسَيّرة مخططة .

والسيراء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور وقيل برود يخالطها حرير . . وقيل هي ثياب من ثياب اليمن . . .الجوهري : « السيراء . برد فيه خطوط صفر . . قال ابن الاثير هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور . . .حلة مسيرة أي فيها خطوط من إبريسم كالسيور » ويتبين من هذا الكلام أن الثوب المسير هو من البرود اليمانية ، وأن فيه خيوطاً من القز والابريسم صفراء كالسيور . (٣) .

اما المفوف فذكر عنه ابن منظور مايلي : الجوهرى : الفوف الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة . . والفوف القشرة التي على حبة القلب أو النواة دون لحمة التمرة وكل قشرة فوف .

١- لسان ٢٧٨/١

٢- لسان ٩١/١٢

٣- لسان ٥٧/٦

التهذيب : ابن الاعرابي : الفوفة القشرة الرقيقة تكون على النواة . . . والفوف ضرب من برود اليمن .

وفي حديث عثمان خرج وعليه حلة أفواف ، الأفواف جمع فوف ، وهو القطن وواحدة الفوف فوفة ، وهي في الاصل القشرة التي على النواة ، يقال برد أفواف وحلة أفواف بالأضافة .الليث : الأفواف ضرب من عصب البرود .

ابن الأعرابي : الفوف ثياب رقاق من ثياب اليمن موشاة ، وهو الفوف وبرد مفوف أي رقيق : الجوهرى : الفوف قطع القطن . . . وبرد أفواف ومفوف بياض وخطوط بيض . . . وقول ابن احمر «والفوف تنسجهالدبور واثلال ملمقة» الثرى سقر الفوف الزهر ، شبهه بالفوف من الثياب (١) .

ويتبين من كلام ابن منظور أن الأفواف هي من البرود ، أو من العصب ، تنسج من القطن وهي بيضاء ، وفيها خطوط .

اما عن المسهم فذكر ابن منظور .«المسهم البردالمخطط . قال ابن بري : ومنه قول أوس :

فانا رأينا العرض أحوج ساعـــة الى الصون من ريط يمان مسهم

وفي حديث جابر أنه (ص) كان يصلي في برد مسهم ، أى مخطط فيه وشي كالسهم . وبرد مسهم مخطط على شكل السهام . وقال اللحياني انما ذلك لوشي فيه . قال ذو الرمة يصف داراً :

كأنها بعد احوال مضين لهـــا بالاشمين يمان فيه تَسَهّم (٢)

ويظهر من هذا الكلام أن المسهم برد مخطط بخطوط مقطعة كالسهام .

١- لسان ١١/١٨٠-١٨١ .

٢- لسان ١٥/٢٠٠ .

ويذكر ابن منظور عن المكعب « . . . ثوب مكعب مطوي شديد الأدراج في تربيع ، ومنهم من لم يقيده بالتربيع ، يقال كعبت الثوب تكعيباً .

وقال اللحياني برد معب فيه وشي مربع ، والمكعب الموشى ، ومنهم في خصص فقال من الثياب » (١) .

وقد ذكرت المصادر ثياباً فيها تصاوير ، فروى مالك ابن انس ان أبا طلحة الأنصاري نزع غطاء من تحت سهل بن حنيف لأن فيه تصاوير ، وكان الرسول نهى عن استعمال مافيه تصاوير ، فاعترض سهل وقال «ألم يقل رسول الله(ص) إلا ماكان رقماً في ثوب ، قال بلى ولكنه أطيب لنفسي » (٢) ويذكر ابن سعد أن عروة كان يلبس الطليسان المزرر بالديباج فيه وجوه الرجال وهو محرم لايزرره عليه (٣) .

كما ان السجلاط هي « ثياب كتان موشية كأن وشيه الخاتم (٤) » والقسية هي ثياب » مضلعة فيها حرير امثال الاترج» (٥) . ويقول ابن منظور « ثياب مضلعة مخططة على شكل الضلع (٦) .

قال اللحياني هو الموشى ، وقيل المضلع من الثياب المسيّر، وقيل هو المختلف النسيج الرقيق وقال ابن شميل: المضلع الثوب الذي قد نسج بعضه وترك بعضه وقيل برد مضلع اذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع ، وتضليع الثوب جعل وشيه على هيئة الاضلاع . . . وفي الحديث أنه أهدي له (ص) ثوب سيراء مضلع بقزّ ، والمضلع الذي فيه سيور وخطوط من ابريسم او غيره شبه الاضلاع .

١- لسان ١١٣/٢ .

٢- الموطأ ٢٤١/٢

٣- ابن سعد ١٣٤/٥ .

٤- لسان ١٨٣/٩، ٦٤/١٧ المعرب ٨٢ .

٥- ابن حنبل ١٣٤/١ .

٦- لسان ٦٤/١٧ .

وفي حديث على«وقيل له ما القسية ، قال ثياب مضلعة فيها حرير ، أى بها خطوط عريضة كالاضلاع » (١) .

ان المعلومات التي ذكرناها آنفاً تظهر ان كثيراً من المنسوجات والثياب، وخاصة البرود كانت منقوشة باشكال متعددة ، ولكن يغلب عليها ان تكون مخططة بدليل كثرة البرود التي وصفت بانها مخططة ، اما الاشكال الاخرى من النقوش فكانت متعددة ولكنها قليلة ، ولم توضح المصادر بدقة الزخارف المطرزة او التي كانت في اصل الحياكة . ويبدو لي ان اغلب النقوش والخطوط هي في اصل الحياكة .

ثم ان المصادر لم تذكر نوعية الخطوط في الاقمشة ، اي فيما اذا كانت عريضة ام دقيقة افقية ام عمودية ، او شاملة لكل الثوب ام مقصورة على جزء منه ، كما انها قلما تذكر الوان الخطوط او خلفيتها . ويلاحظ ان البرود كانت من البسة الترف الغالية ، والراجح انها لم تكن شائعة بين الفقراء .

اما الصباغون فلم اجد في خطط المدينة ومكة والبصرة والكوفة سوقاً لهم او مكاناً خاصاً بهم فيها ، ولم اجد الا ماذكره البلاذرى من أن سليمان بن عبد الملك احدث الرملة ومصرها « وكان اول مابنى فيها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً فيها » (٢) .

ويقول الجاحظ « ولا تجد اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً او شعاباً فلما رات العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت ان دين اليهود في الديانات

١- لسان ١٠/٩٧ .

٢- فتوح البلدان ١٤٢

كصناعتهم في الصناعات » (١) ويفهم من هذا النص ان حرفة الصباغةلم تكن محترمة ، وان اليهود كانوا يكثرون من احترافها . وكلام الجاحظ هذا ينطبق على عصره وفي العراق خاصة ، غير انه توجد اشارات في بعض الكتب تدل على ان اليهود كانوا يشتغلون بالصباغة في ازمنة وامكنة اخرى ، فالجاحظ يقول « وزعم ان القرمز حشيشة تكون في اصلها دودة حمراء تنبت في ثلاثة مواضع في ناحية المغرب بارض الاندلس ، وفي رستاق يقال له تارم ، وفي أرض فارس ولا يعرف هذه الحشيشة وأماكنها الا فرقة من اليهود يتولون قلعها كل سنة في ماه اسفنداروز » (٢) .

ويذكر ابن العبرى انه لم يرتفع في العالم الاسلامي يهودي الى اكثر من ان يكون دباغاً او صباغاً . ولعل سيطرة اليهود في الصباغة ترجع الى عهود قديمة وأماكن أعم ، وان من بعض عواملها تنظيماتهم التي تمكنهم من السيطرة على الاصباغ من منابعها المنتجة (٣) .

* * *

صالح احمد العلي

١- الرد على النصارى ضمن ثلاث رسائل للجاحظ ١٧ .

٢- التبصر بالتجارة ١٩ .

٣- تاريخ ابن العبري ١/٤٩ المترجم عن السريانية .